فاطمة محمد البغدادي
باحثة في القضايا العامة، وخبيرة في التربية والتعليم

الرشوة.. وظاهرة التخلف الاقتصادي

إن الرشوة من أخطر الآفات، التي تفضي إلى تفاقم ظاهرة التخلف الاقتصادي، أكدت على ذلك نتائج دراسات وأبحاث أكاديمية حديثة، وكان تقرير صادر عن الأمم المتحدة، قد حذر من هذه الآفة، وأشار إلى أن برنامج التنمية المستدامة، الذي يستهدف القضاء على الفقر بحلول العام ٢٠٣٠م، لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا بالقضاء على الرشوة، أو على الأقل الحد منها إلى أدنى مستوى ممكن، واقترحت الأمم المتحدة آليات تمثل مدخلا لتحقيق ذلك، منها: «التحفيز على التشهير بكل من الراشي والمرتشي، مع ضرورة حماية هوية المشهر»، و«تخصيص وقت وميزانية خاصة بالوصلات الإشهارية، للتوعية بأخطار الرشوة، وعواقب المتعاملين بها»، و«تبني ثقافة استنكار كل الأنشطة الخارجة عن القانون، أو المشكوك فيها»، وتشديد العقوبات على الراشي والمرتشي، في حالة إثبات الدليل عليهما»، و«الاعتماد أكثر على الحكومة الإلكترونية، في التعاملات الروتينية».

لقد سبق ديننا الإسلامي الحنيف، ما توصلت إليه الدراسات والأبحاث الحديثة من نتائج، وما حذرت منه الأمم المتحدة، من خطورة كبيرة للرشوة، ليس فقط على الاقتصاد، بل وأيضا على العدالة الاجتماعية، باعتبارها مدخلا لقوة الاقتصاد، وقدم الحلول العلاجية والوقائية، بعد أن وضع تشخيصا واضحا لهذه الآفة.

لغة.. ومصطلح

الرشوة واحدة الرشا، وتضبط الرشوة مثلثة الراء المشددة، فيقال رشوة، بفتح الراء، ورشوة، بكسر الراء، ورشوة، بضم الراء، ورشا يرشيه رشوا، أي أعطاه الرشوة في محاباة.. وقال الفيروز أبادي في القاموس المحيط: الجمع رشا ورشا، ورشاه أعطاه إياها، وارتشى

أخذها، واسترشى طلبها، وراشاه حاباه وصانعه، وترشاه لاينه[1]. والأصل من الرشاء، أي حبل الدلو، الذي يتوصل به إلى ماء البئر.. ومن الألفاظ المرادفة للرشوة «السحت»، وهو الحرام، أو ما خبث من المكاسب، فلزم عنه العار، قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (المائدة:٤٢)، وفي تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ورد أن الحكم بن عبدالله قال: قال لي أنس بن مالك: إذا انقلبت إلى أبيك فقل له: إياك والرشوة، فإنها سحت، وكان أبوه على شرط المدينة[2].

واصطلاحا، فإن الرشوة هي كل مال يدفع لوالي أو عامل أو قاض أو موظف، من أجل قضاء مصلحة من مصالح الناس، يجب قضاؤها من غير دفعه[3]، وقال الجرجاني: إنها ما يعطى لإبطال حق، أو إحقاق باطل، وفي فتح الباري لابن حجر العسقلاني، هي ما يؤخذ بغير عوض، ويعاب أخذه.. وقيل سميت رشوة، لأنها تلجم المرتشي عن التكلم بالحق، وورد في الأثر، عن الحسن البصري، قال: «إذا دخلت الرشوة من الباب، خرجت الأمانة من الكوة»[4].

وعادة يشارك في الرشوة، ثلاثة أشخاص، هم:

- الراشي: وهو من يقوم بدفع الرشوة، أو هو من يعطي الذي يعينه على الباطل.
- الرائش: إذا لم يقم الراشي بدفع الرشوة يدا بيد، فإنه يلجأ إلى شخص وسيط، ينوب عنه بالتفاوض والدفع، فيستزيد لهذا، ويستنقص لذاك، وإن لم يأخذ أجرا، فإن أخذ فهو أبلغ.. ويطلق على هذا الوسيط لقب «الرائش».
- المرتشي: وهو الشخص المتحصل على الرشوة، من أجل تقديم مصلحة للراشي، أو تسهيل أمر ما له.

والثلاثة مجرمون ملعونون، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي»[5]، وفي رواية: «والرائش»[6].

أسباب الرشوة

تتعدد الأسباب التي تفضي إلى انتشار الرشوة في مجتمع ما، ويمكن بإيجاز تحديد أهم هذه الأسباب، في النقاط التالية:

الفساد الإداري:

نتيجة وجود قوانين تتسم بالغموض، وتتعدد تفسيراتها، يصاحب ذلك غياب الرقابة والمساءلة، وعدم وجود استقلالية بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، مما يؤدي إلى تكوين طبقة من الشخصيات، ذات المناصب الإدارية، التي ترى في نفسها قوة فوق القانون، ومن ثم يصبح بيدها العطاء أو المنع، خاصة مع وجود الإجراءات الإدارية الروتينية الطويلة الأمد.. وكذا وجود أساليب غير مشروعة في التعيين والتدرج في المناصب، وغياب العدالة في تطبيق مبدأ «الثواب والعقاب».

ضعف الوازع الديني:

حيث إنه بغياب الجانب العقائدي والروحي، يتغلب الجانب المادي، ومن ثم تفسد الأخلاق، أو بعبارة أخرى تتراجع النفس اللوامة، أمام النفس الأمارة بالسوء، ويصبح ثلاثي أركان الرشوة (الراشي، والرائش، والمرتشي)، أسرى لأطماعهم وشهواتهم المادية.

ضعف الانتماء، والوعي الاجتماعي:

يظهر ذلك بشكل أكثر وضوحا، في المجتمعات التي تعاني من التفكك بسبب الخلافات المذهبية، أو الطائفية، واتساع الفجوة بين طبقات المجتمع، وتغليب المصالح الشخصية والانتماء القبلي والعشائري، على الانتماء الوطني.

ضعف النظام التعليمي، والتربية الحسنة:

حيث إن الإنسان بفطرته، يتأثر كثيرا، ومنذ نعومة أظافره، بمن حوله، خصوصا والديه وأساتذته، فهم قدوته، الذين يسعى إلى انتهاج نهجهم، واتباع سلوكهم.. إلى جانب ذلك، افتقار المناهج، وطرق التعليم، إلى بث القيم والأخلاقيات النبيلة، مثل الصدق، والإخلاص، والأمانة، والحياء، والعفاف، والرضا بقضاء الله.

وجود خلل في المنظومة الاقتصادية:

يتركز هذا الخلل، في سوء توزيع الدخل القومي، وتدني الأجور، في وقت تظل الأسعار في ارتفاع، وتضطرب الأحوال المعيشية، ومن ثم تتعدد الأبواب الخلفية للرشوة.

الرشوة.. والتخلف الاقتصادي

والتداعيات التي تفضي إليها الرشوة، متنوعة وخطيرة، حيث إنها تفاقم من الأزمات، وتزيد من التفكك والانحلال الأخلاقي، ويصبح التخلف الاقتصادي ظاهرة، تنخر كالسوس في نسيج المجتمع، وتدفع سريعا نحو اهترائه، حيث تتدنى الإنتاجية كما ونوعا، كون الطاقات تصرف في مصارف غير مشروعة، وأغراض ذاتية.. ويسود الاحتكار في تقديم الخدمات، التي يتم الحصول عليها، نظير دفع الرشوة.. وتصبح المقدرات، التي من المفترض أن توزع بعدالة، وتصل إلى مستحقيها، تحت قبضة حفنة من الراشين والمرتشين والرائشين، من أصحاب النفوذ، يسخرونها لمصالحهم المشتركة.. يصاحب ذلك ظهور ما يعرف بجماعات

الضغط، التي ترتشي وترشي، لتوجيه السياسيات نحو مصالحها، مما يؤثر بالسلب على خطط التنمية، ويختل ميزان توزيع الدخل، ويتولد شعور مجتمعي بالحقد والحسد والبغض، وتتواري الأسس والمعايير الضابطة للأنشطة الاقتصادية.. ولخطورتها، أنزل المولى تبارك وتعالى قرآنا، ينهانا عن ممارستها، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٨٨).

الحلول.. وسبل المواجهة

ولكونها إشكالية تراكمية ومعقدة، فإن الاتجاه نحو إيجاد سبل لمواجهتها، على نحو فاعل، يبدأ من التشخيص الجيد لها، ومعرفة مدى وأبعاد تغلغلها في المجتمع، ومن ثم وضع الحلول المناسبة للقضاء عليها، والتي تتضمن:

- مراجعة القوانين المتعلقة بمحاربة الرشوة والفساد الإداري والاقتصادي، لسد الثغرات، ومنع تعدد التأويلات والتفسيرات، وجعل العقوبات أكثر ردعا، لمن يثبت ارتكابهم لهذه الجريمة.
- الاهتمام والعمل على رفع مرتبات الموظفين، بحيث تكون مناسبة لاحتياجات المعيشة، ومانعة لفتح الأبواب الخلفية.
- ضرورة الفصل بين السلطات، خصوصا السلطتين التشريعية والتنفيذية.
- تفعيل دور الرقابة والمساءلة.. ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه أرسل إلى عامله كعب بن مالك رضي الله عنه، رسالة ورد فيها: «أما بعد، فاستخلف على عملك، واخرج في طائفة من أصحابك، حتى تمر بأرض السواد كورة كورة (أي قرية قرية)، فتسألهم عن عمالهم، وتنظر في سيرتهم»[7].
- في الوظائف والمناصب، يجب أن يكون مبدأ التعيين والترقية، هو «الشخص المناسب في المكان المناسب»، لتحقيق العدالة وتكافؤ الفرص.. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا ضيعت الأمانة، انتظر الساعة، قيل يا رسول الله: وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة»[8].
- تنظيف المصارف من شوائب الربا، فهي أحد الأبواب الخلفية للرشوة والفساد الاقتصادي.. وقد حذرنا المولى تبارك وتعالى، من خطر هذه الآفة، وتداعياتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (البقرة:٢٧٨-٢٧٩).
- العمل من خلال وسائط الإعلام المختلفة، على تفشي الأخلاقيات والقيم النبيلة، فلا يمكن أن يقع في دائرة الرشوة، من حسن خلقه، وارتقت سلوكياته، وكان قنوعا بما قسمه الله جل وعلا له، مصداقا لقول النبي ﷺ، لأبي هريرة رضي الله عنه: «وارض بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس»[9].. وصار قاضيا لحوائج الناس، من دون غرض فاسد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[10]، وعن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[11].. ورسخ الإيمان في قلبه، وأيقن أن ما عند الله جل وعلا، خير وأبقى، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (النمل:٣٥-٣٦).. وأدرك بجلاء الفرق الشاسع بين الهدية والرشوة، عن أبي حميد الساعدي، أن رسول الله ﷺ، استعمل رجلا من الأزد، يقال له ابن اللتبية، قال عمرو وابن أبي عمر، على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، قال: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم، وهذا أهدي لي! أفلا قعد في بيت أبيه، أو في بيت أمه، حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم شيئا، إلا جاء به يوم القيامة، يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه، حتى رأينا عفرتي إبطيه، ثم قال: «اللهم هل بلغت؟» مرتين»[12].

الهوامش

١- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط - فصل الراء.
٢- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - الجزء العاشر - ص٤٠٦.
٣- العجل، فضيلة الشيخ الدكتور بشار بن حسين: رشاوي الموظفين - ص١١٧.
٤- الدولابي: الكنى والأسماء - الجزء الثالث - ص١٩٨.
٥- أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.
٦- أخرجها أحمد، في مسنده.
٧- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي - الجزء الأول - ص١٩٨، الصلابي، محمد علي محمد: سيرة امير المؤمنين علي بن أبي طالب - الجزء الثاني - ص٦٠.
٨- رواه البخاري، في صحيحه.
٩- رواه الإمام أحمد.
١٠- رواه البخاري، ومسلم.
١١- رواه البخاري، ومسلم.
١٢- ورد في الصحيحين.